**المحاضرة 2: علوم اللغة العربية**

شبه الجزيرة العربية صحراء ممتدة شحيحة المياه كثيرة الجبال قاسية المناخ، فكان طبع سكانها انعكاسا لطبيعتها فعرف عن العربي قساوة وبأس أفرزتهما غريزة البقاء في تلك البيئة التي تتحدى الحياة، وعرف بالتفاخر والغطرسة والكبرياء، وبالغزو وقطع طرق القوافل ونهبها وطلب الثأر مهما طال الزمن وشرب الخمور، وهذه من الجاهليات التي وسمت هذا العصر لاحقا بالجاهلي، كما تحلى بمكارم الأخلاق ومحامد الصفات كالكرم والشجاعة والصدق والصراحة والعفو عند المقدرة، وحب الحرية، والحفاظ على العرض، والذود عن الحمى وهي من الحسنات التي ثمنها الإسلام فيهم.

يتكلم سكان شبه جزيرة العرب اللغة العربية، وقد قامت حركة أدبية شفهية واسعة شعراً ونثراً، صاحبتها حركة نقدية للخطب والأشعار التي كانت تلقى في الأسواق الجاهلية، وقد ساعدت هذه اللقاءات الأدبية على توحيد لغة العرب، حيث سادت لغة قريش، ويظهر شعرهم وخطبهم قبيل الإسلام عن براعة أدبية وتوسع لغوي وذوق للمعاني مما يدل على الرقي والازدهار الأدبي مما هيأ للمعجزة البيانية للقرآن حيث تحداهم فيما يجيدون من صناعة الكلام وبلاغة التعبير.

**العرب قبل الإسلام أدبيا وعلميا**

قد لا نبالغ إذا قلنا بأن العرب من أكثر الشعوب اعتزازا بلغتهم، فقد أولوها أهمية كبيرة وتدرجوا في التفنن في أدائها حتى بلغوا بها مبالغ عالية من الجودة والتحكم والتفاني، حيث كان الشعر والخطابة من أجلّ ما يمكن أن يمتلك الفرد زمامه في القبيلة فكانوا يحثون أبناءهم على إتقان الشعر ويحرّضونهم على نظمه، لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس، ولذلك كانوا إذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة. وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء أنهم عمدوا إلى قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب وعلقوها في أستار الكعبة وهي المعلقات ولذلك يقال لها المذهبات أيضاً كمذهبة امرئ القيس.

أما في الحياة الفكرية والعلمية لم يعرف العرب علوما بالمعنى الاصطلاحي الدقيق للكلمة، وإنما كانت بمثابة مواهب وخبرات مختلطة بالخرافة والحدسيات تتفق مع الاستعدادات العقلية البسيطة لدى العرب في تلك الحقبة، ولم تتوفر لديهم أسباب بروز العلوم وتطورها كدور التعليم مثلا أو التدريب في المهن والفنون إذ كانت الأمية هي السائدة بينهم. ومن العلوم - بالمعنى السابق - التي كانت متداولة لديهم:

* علم النجوم: النجوم ومواقعها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم، وربما استعانوا على ذلك أيضاً بذكر مهاب الرياح لمعرفة الجهات؛
* الكهانة والعرافة: المراد بهما استطلاع الغيب والتنبؤ بهما؛
* القيافة: تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الأعيان؛
* الطب: للتطبيب عندهم طريقتان: الأولى طريقة الكهان والعرافين، والثانية طريقة العلاج الحقيقية التي تعتمد على وصف الأعشاب والأشربة للمريض.

أما العلوم اللغوية فلم تلح الحاجة لها، لأنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية بالسليقة ومن قلة اختلاطهم بغيرهم لم يكن هنالك ما يهدد هذه اللغة فبقيت على حالها نقية كما ورثوها عن آبائهم، لكن بعد الإسلام أصبح لها وضع آخر.

**الإسلام والحركة العلمية اللغوية:**

ساهم القرآن في وحدة العرب اللغوية عندما قرؤوه باعتباره أول كتاب مدون في تاريخهم بعد تاريخ أدبي محفوظ، ومن الجدير بالذكر أن العرب لم يتأثروا بالفلسفات اليونانية والقوانين الرومانية، ولم تنشأ بينهم مدارس فكرية معقدة، فكانوا مهيئين لتلقي الرسالة الإسلامية وحملها بنقاوتها وصفائها دون أن تشوبها أو تدخلها أفكار أجنبية فكان ذلك من تهيئة الله تعالى الظروف الملائمة لاستقبال العرب لرسالة الإسلام .لكن ولأن رسالة الإسلام ليست للعرب وحدهم بل للإنسانية جمعاء، بدأت حملات نشر هذه الرسالة منذ عهد الرسول (ص) واشتدت في عهد الخلفاء الراشدين وتوالت مع الأمويين والعباسيين فدخل في الإسلام الكثير من الأجناس والشعوب من غير العرب في دين الإسلام، وأصبحوا جزءا من المجتمع العربي الكبير. ومع توسع الفتوحات الإسلامية في مختلف الاتجاهات بدأت حركة علمية تعنى باللغة العربية من مختلف جوانبها تنمو بوتيرة مسرعة وبإقبال من المتطوعين لخدمتها متزايد.

وأهم عوامل ظهور العلوم اللغوية ما يلي:

1. **العامل الديني**: لما توسع الإسلام واختلط العرب بغير الغرب من الشعوب التي دخلت فيه بدأ يدبّ الوهن في اللغة العربية ويتسلل إليها اللحن على لسان أبناء العرب قبل غيرهم، فخاف أهل الحكم والعلم أن تتعدى هذه اللوثة اللغوية إلى القرآن الكريم، فانطلقوا يجمعون اللغة ويقعدون استعمالها حفاظا على نقائها وصورتها التي نزل بها القرآن الكريم.
2. **العامل التعليمي**: الذين دخلوا في الإسلام قبلوا الدين في عباداته كما قبلوا دستوره القرآن الذي نزل عربيا، فكان على من أراد منهم أن يقرأه ويؤدي عباداته كاملة مفهومة أن يتعلم اللغة العربية، لذلك فالإسراع في وضع المعاجم وقواعد اللغة وضبط كيفيات قراءة القرآن يقدم خدمة جليلة لهؤلاء الأعاجم لأن يتعلموا دينهم ويمارسوا شعائره.
3. **العامل الاجتماعي**: نعلم أن اللغة من أهم العوامل التي تساعد على الإندماج في النسيج الاجتماعي، فكل أجنبي عن المجتمع تنتفي هذه الصفة فيه بمجرد أن يتقن لغة المجتمع هذا ويتقمص ثقافة أفراده، كذلك كان المجتمع الإسلامي في بداياته أحوج ما يكون إلى انسجام المجتمع عامة وتناغم مكوناته وهذا لا يتأتى إلا بأن تسود اللغة العربية موحدة بينهم.
4. **العامل العرقي**: للإنسان ارتباط عجيب بأرض نشأته، وارتباط أعجب بطفولته وصغره، فمهما تصورنا قساوة ما يمر به ومرارة الحياة التي تشربها إلا أن قوة خفية في داخله تجعله يؤمن بأن هذا جزء منه ولابد ألا ينكره أو يحتقره بل الأصل أن يعتز به ويفخر. قليلون من استطاع خلق القطيعة مع هذه الجاذبية، وقد حدثت هذه الجدلية في المجتمع الإسلامي بعد توسع الفتوحات، فهناك من دخل الإسلام وانصاع للدين الجديد انصياعا كاملا وكأنه عربي الأصل والمنشأ، لكن فريقا آخر تقبل الدين لكنه رفض أن يذوب في الثقافة العربية وبقي متمسكا بثقافته وثقافة أجداده بل تعدى الرفض عند بعضهم إلى الاستعلاء على الثقافة العربية ولغتها.. فتصدى بعض العلماء العرب لهذه الحملة التي تنقص من شأن اللغة العربية محاولين إثبات أفضليتها على باقي اللغات بتشخيص بعض خصائصها وإبراز مزاياها ضمن مؤلفات.

وفي خضم هذه المعطيات ظهرت علوم لغوية أولويتها الأولى خدمة الدين الإسلامي بالحفاظ على كتابه المقدس القرآن الكريم وتسهيل قراءته وتيسير تفسيره وفهمه، كعلم النحو والصرف والبلاغة والصوتيات..